سر من رأى

من كتاب « عبد الله بن المعتز »

تحت الطبع

لحضرة الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل

على مقربة من فم القاطول ، رافد دجلة الذى حفره هرون الرشيد ، والذى طمر الآن ، وعلى مسيرة ثلاثة أيام من منبع ذلك النهر كجسابهم فى السير ، وبالقرب من قصر هناك للرشيد ودير لجماعة من الرهبان — فضاء ذو سمة ، به أعذب الماء وأصفاه . وأخصب التربة وأجودها ، يهب به أنقى الهواء وأطيبه ، ويسكنه أو ينزح إليه أسمن الصيد وأكثره ، فاذا قصد المرتاد متنزها شافيا أو قصد النازل مقاما طيبا ، لم يجد خيرا من هذا المتنزه والمقام ؛ وإنه ليأكل فيه أكثر مما اعتاد أن يأكل لما يفعله بهضم الطعام هواء المكان وماؤه الطيبان .

وكان يقصد إلى هذا المكان خلفاء العباسية منذ الرشيد ، ثم الوزراء والرؤساء من بغداد وغير بغداد ، فيجدون بالمنزل سرورا ولهوا ؛ وبأهل ذلك الدير راحة وأنسا ؛ وكان المعتصم العباسى أكثر هؤلاء جميعا ترددا على المكان ، وحبا له ، حتى إنه ابتنى له به قصراً بالقرب من قصر الرشيد ، ينزل به كلما أحب النزهة وأراد الاستجمام والشفاء .

ركب المعتصم يوما ببغداد فى موكب من مواكبه فاعترض الموكب شيخ عربى من أهلها ، فارتفعت سياط الجند الترك عليه تريده أن يتنحى عن موكب الخليفة ، ولكن عينى المعتصم أدركتاه قبل أن تهبط عليه السياط ، فأشار إلى جنده أن يكفوا ، فكفوا ، ولكن الموكب أيضا كان قد كف عن المسير .

ودنا الشيخ من مركب المعتصم ، وبدنه يرعد غضباً لا رعباً ، وصاح بصوته الأجش الوقور :

أين المعتصم ؟

فبسط له المعتصم من نفسه وقال : أنا هو ، فما حاجتك أيها الشيخ ؟

قال : لاجزاك الله خيرا عن جوارنا ياأبا اسحق ! جاورتنا مدة فرأيناك فيها شر جار ، جئتنا بهؤلاء الغلمان من الترك فأسكنتهم بيننا ، فأيتموا صبياننا وأرملوا نساءنا ! والله إن لم تمنعهم عنا لنقاتلنك بسهام الليل ! ثم تنحى الرجل عن طريق الموكب وقد سكن غضبه وذهبت عنه رعدته ، فأمر المعتصم موكبه أن يستأنف المسير .

وكان يسكن بغداد حول أمراء بنى العباس والمعتصم خاصة ثمانية عشر ألفا أو يزيدون من أهل سمرقند وفرغانة وبقية النواحى التركية ، قد بذلت فيهم الأموال ، وجيء بهم فزانوا قصبة العباسية ودار الخلافة الاسلامية ، وملئوها على أهلها جلبة وضوضاء ، وطرحوا خيولهم فى شوارعها طاردهم لها فى الخلاء ، فصدموا المرأة والفتاة والشيخ الكبير والطفل الصغير من غير مبالاة ، لأنهم لم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الاسلام ، ولا القلب الذى لينه ، بل جاءوا إلى الاسلام فى خشونة الجهل وقسوة الظلم ، فلبسوا الدين على أبدانهم دون أن ينفذ منه شيء إلى قلوبهم ، وأصبح الأمر كله لهم دون العرب ، بل دون الناس ، ولم يكن لغيرهم شيء من قوة أو حيلة ، فلم يملك أهل بغداد لهم شيئا غير أن يغضبوا منهم بقلوبهم تارة ، وبالقصاص منهم غيلة تارة أخرى ، وبالتندر بهم وبالمعتصم فى المجالس على حذر ، وكان التندر يبلغ أسماع الترك وسمع المعتصم فينفى المتندر ويشرد فى البلاد ، كما شرد دعبل الشاعر حين تندر بهم ؛ فلما بلغ السيل الزبى ، تقدم هذا الشيخ إلى موكب المعتصم يكاشفه بالغضب ويبثه الشكوى .

سمع المعتصم شكاية الشيخ ، ورهب هذه السهام التى هدده بها ، إذ لا قبل له بالدعاء يرتفع من المظلومين إلى الله فى جوف الليل ، وكان الخليفة يعرف الأمر ولا يجهله ، غير أنه اهتم له بعد ، وأحله من نفسه مكانا .

وكأنى بذى السلطان — مهما بلغ سلطانه وامتد بطشه وانبسطت قدرته — يخاف المظلوم ، ويرهب جانبه ، مهما كان المظلوم ضعيفا ! فما برح المعتصم مكان

الشكوى ، حتى عزم أن يتحول بهؤلاء الجند الذين لاغنى لأبهة الملك عنهم إلى مكان آخر غير بغداد .

ولسنا نظلم المعتصم فى تقديمه الترك والاحتفال بهم ، فجده الأعلى أبو جعفر المنصور أول من قدم الأغراب فى مراتب الدولة وأقصى العرب وقدم الخراسانية ، ثم قدم الرشيد البرامكة ، فأصبحت تلك سنة العباسية ، فلا مفر منها ولا مناص .

أسرع المعتصم إلى أهل ذلك الدير القريب من القاطول ، ولعله دير السوسى ، وابتاع منهم الأرض الفضاء الضاربة حوله ، ليختط فيها مدينة لعسكره ، فقد عرضت له فرصة محبوبة لبناء مدينة ، وهو من طبعه يحب العمارة ، ويرى فيها عمران الأرض التى تحيا بها المعالم ، وعليها يزكو الخراج . وتكثر الأموال . وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش ، فحشد للبناء حشدا كبيرا من الفعلة والعمال ، جمعوا من مختلف النواحى والأقطار ، وسرعان ما اختطت المدينة ، ودربت دروبها ، وشيدت قصورها وعلا بنيانها وزخرفت مساجدها ، واستنبطت إليها المياه من الدجلة ، ونقلت إلى بساتينها أنواع الشجر وأصناف الغروس .

وجعل البلد قطائع لطوائف الجند ، كرخ سامرا للترك ، والجسر للفراغنة ، وهكذا ؛ وأفرد أهل كل صنعة أو تجارة بسوق .

وقد قدر للعراق منذ القدم أن تكمل مدنه الجديدة على وجه السرعة ، كالبصرة وواسط وبغداد ، وكذلك كملت هذه المدينة ، والتفت مبانيها دائرة حول قصر المعتصم وبساتينه بحى الوزيرية الذى اختاره واختصه ، وتم ذلك كله فى عام ، أو فى أقل من عام ، وأثمرت بساتين المعتصم التين الوزيرى ، وهو أعذب أنواع التين وأرقها قشرا وأصغرها حبا ، لا يبلغه تين الشام ولا تين حلوان ، ثم أنواع الفواكه الأخرى .

ثم ظهرت أجناد المعتصم فى « سر من راه » كما سماها البحترى فى شعره لابراهيم ابن المدبر إذ يقول :

أى شىء ألهاك عن سر من را ... وظل للعيش فيها ظليل ؟

ظهروا فى أحسن مظهر وأبهى زينة ، ظهروا فى حلل الديباج ، وتمنطقوا بمناطق

الفضة والذهب ، وعقد رؤساؤهم الأوشحة بها مرصعة بأحجار الجوهر الكريم ، وصارت سر من رأى فتنة الناس فقصدوها من كل حدب وصوب ، ولاسيما من بغداد ، وتجامعوا فيها ، فكثرت معايشها وأصبحت زينة البلدان .

وكذلك فى عام أو بعضه ، صار ذلك المكان القفر الجديب داراعامرة ، وسوقا مزدحمة ، خربت بها بغداد ، إذ انتقل إليها الخليفة وجنده ، وتبعهم الذين شكوهم وكرهوا جوارهم ، وحفلت بالفنادق والنزل للزائرين والمتفرجين بمشاهدها .

ولم تصبح المدينة الزاخرة معرض جمال وسوق تجارة فحسب ، بل أصبحت مع ذلك موطن أهل العلم والأدب والنقد والأخبار والأنساب ، وموطن كثير من الشعراء والكتاب ، ثم الفقهاء وأصحاب المذاهب من أهل السنة والمتكلمين ، والمتصوفة والرافضة وحفاظ الحديث ، بل أصبحت موطن أهل الفتن من المغنين ، وحتى أهل البله من أصحاب الأخبار المضحكة والمجانين .

وقد رأى المعتصم كل ذلك بعينيه ، وطرب له ، وحزن لفراقه حين مرض وكان كلما ألح عليه المرض ألح على هذه الديار بوقفات الوداع ، ونزل إلى سفينته فى ستر الليل ومعه « زنام » الزامر بالناى ، يطوفان بشاطىء القاطول على القصور والبساتين من خلفها ، وهو متكىء على فراشه بالسفينة يدعو زناما أن يزمر بين يديه ليسليه ويغنى بقول القائل :

يا منزلا لم تبل أطلاله ... حاشا لاطلالك أن تبكى

لم أبك أطلالك لكننى ... بكيت عيشى فيك إذ ولى

والعيش أحلى ما بكاه الفتى ... لا بد للمحزون أن يسلى

وكأن غضب أهل بغداد ما زال بهم على المعتصم حتى قضى على المعتصم ، وما زال بهم على الجند حتى تقاتلوا وقتلوا ، وما زال بهم على ملك المعتصم حتى تمزقت أطرافه وتفرقت أجزاؤه ، وانصب جام الغضب على سرمرا ، وما هى الا لحظة فى عمر المدن والقرى حتى أمست والناس يطلقون عليها : ساء من رأى .

نعم ، لقد مضت قليلا بعد سيدها المعتصم فى صلاح وزيادة ، وحياة وعمارة ، وأضاف اليها الواثق الهارونية ، والمتوكل المدينة الجعفرية ، فعظم قدرها وبنى بها

بناءه العظيم المسمى بالبديع ، فلما ولى الخليفة المستعين أمور الناس قويت بضعفه شوكة الأتراك ، وبقوتهم أخذت سرمرا فى تناقص . كما تناقصت الدولة من أطرافها ، وانحدرت المدينة الى الزوال سريعا سريعا .

أمست شوهاء فى ثوب حسناء ، وأمست عش دسائس وملعب أطماع ، يتواطأ فى قصورها الوزراء مع رؤساء الحجاب على تولية من شاءوا وعزل من أرادوا ، وعلى الاطلاق والحبس ، والفك والقيد ، وما زالت جراثيم العدوى تتسرب من القصور الى بقية الدور ، والى الانحاء والجهات . وما زال الوجع يسرى من الرأس الى الاعضاء حتى اضطرب الحبل ، واختل الامن ، وشاعت النغمة فى النفوس .

ثم اجترأ اللصوص على المدينة فهجموا دورها ، ولم تكن فى أيدى الترك أمنع منها فى أيدى اللصوص ، بل اجتمعت على تخريبها أيدى أهلها وأيدى الغرباء عنها وما ابقت غير قليل حتى تكدر بها الهواء الطلق وتعكر الماء النمير ، وتحول الطاردون من صيادى طير ووحش الى صيادى نفوس وأموال ، وريشت الاسهم فى أيدى السراق لا فى أيدى الجنود والحراس .

ومرت بها أعوام فتن وثورات أقضت مضاجع أهلها ، وطالما فتح الترك سجونها وأحرقوا الجسور وانتهبوا الدواوين ، وكثيرا ما حدث صدام بين الترك والعامة فسالت الدماء من الفريقين .

وما زالت الخطوب تلح سراعا بهذه القرية الظالم أهلها ، وتفد المصائب تباعا ، حتى رجع عنها العمران ، ورجع أهل بغداد الى بغداد يحملون أنقاض سامرا ليبنوا بها مدينتهم الزوراء مرة أخرى .

وهكذا أخطأ ظن المعتصم فى الزمن فبليت وراءه الديار والمنازل ، أو لعلها سبقت عظامه فى البلى والاندثار .

وكان من أمرائها الذين صحبوها وهى عامرة وزائلة ، وصاخبة وصامتة ابن المعتز ، ذاق لذاتها وهمومها ، فأحبها وآثرها على بغداد ، وألفها وهى تخرب ، وأنس اليها وهى تبرم بسكانها وتنفض عنها الناس ، وطالما دعا لها بالشفاء والمرض يدب

فى جسمها ، وسأل لها السقيا وكل أمواه الدنيا لا تشفى ما أصابها من غلة واحتراق ونظر اليها نظرة المتأمل فوجدها عظة العظات فقال :

سقى الاله سرمرا القطرا والكرخ والخس القرى والجسرا
قد عجمت عودى وكنت مرا حرا إذا لم يك حر حرا
لا تأمنوا من بعد حلم شرا كم غصن أخضر صار جمرا

وقال :

أرى سر مرا مذ سنين كثيرة تزيد خرابا كل يوم وتذبل
كأن بها داء دخيلا فجسمها على ما بها من سقمها يتسلل

وقد ناظر ابن المعتز أصدقاءه فيها وفى بغداد ، فكان مما كتب إلى أحدهم فى تفضيلها ، وفيما نزل بها من مصاب قوله :

كتبت إليك من بلدة قد انهض الدهر سكانها ، وأقعد جدرانها فشاهد اليأس فيها ينطق ، وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عمرانها يطوى وكان خرابها ينشر ، وقد وكلت الى الهجر ، واستحثت باقيها إلى فانيها ، وقد تمزقت بأهلها الديار فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها يمحو الأثر والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره إرجاف وسروره أحلام ، ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع ، فحالها تصف للعيون الشكوى وتشير إلى ذم الدنيا بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض وقرار الملك تفيض بالجنود أقطارها ، عليهم أردية السيوف وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوعول ودروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد بالنقع سائرها . . .

على أنها وإن جفت معشوقة السكنى وحبيبة الثوى ، كوكبها يقظان وجوها عريان ، وحصاها جوهر ونسيمها معطر وترابها مسك أذفر ، ويومها غداة وليلها سحر وطعامها هنىء وشرابها مرىء وتاجرها مالك وفقيرها فاتك . . .

عدت سرمرا فى العفاء كأنها قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
وأصبح أهلوها شديبا بحالها لما نسجتها من جنوب وشمأل
إذا ما امرؤ منهم شكا سوء حاله يقولون لا تهلك أسى وتجمل

ولم يملك ابن المعتز أن يدفع عن نفسه حب سامرا وكره بغداد حتى بعد أن آوته بغداد وأقام بها لا يريم فكان من قوله :

كيف نومى وقد حللت ببغدا دمقيما فى أرضهـــا لا أريم
ببلاد فيها الركايا عليهن سحاب من البعوض تحوم
جوها والشتاء والصيف والفصـــل دخان وماؤها يحمـوم

ولم يكن عمر سامرا سوى خمس وخمسين سنة ، أقفرت بعدهن وهجرها الناس ولم يبق بها غير أطلال ، وقد شهد ابن المعتز موتها فرثاها مهموم النفس بادى الحزن بقوله :

قد أقفرت سرمرا ومـــا لشىء دوام
فالنقض يحمل منها كأنهـــا آجام
ماتت كما مات فيل تسل منها العظام

عبد العزيز سيد الأهل
المدرس بالابراهيمية الثانوية